وقفة مع
القديس أوغسطين

obeikandl.com

obeikandl.com

وقفة مع القديس أوغسطين[١] (٣٥٤ - ٤٣٠)

مقدمة:

يعد القديس أوغسطين علما بارزا من أعلام المسيحية المرموقين، وشخصية كبيرة وقوية، وتمثل فلسفته منعطفا هاما في تاريخ الفلسفة المسيحية، لما كان لها من الأثر العظيم فيها، وتعد فلسفته قمة العصر الكنسي، وذلك أن الأوغسطينية ظلت تقريبا التفكير المسيحي التقليدي حتى نهاية عصر آباء الكنيسة بل في التفكير المسيحي خلال العصر المدرسي المتأخر.[٢]

وترجع أهمية القديس أوغسطين في الفكر الفلسفي المسيحي والإنساني إلى:

١- أنه عاش مبادئه وجسدها في سلوكه، وتمثلت في حياته اليومية فدافع عنها بإصرار وثبات ووهب حياته للمبادئ التي اعتنقها، والكنيسة التي آمن بها وعاش ومات من أجل المسيح والمسيحية.

٢- منهجه الفلسفي الواضح المحكم، إذ بني إيمانه القوي على أدلة برهانية وعلى أساس العقل، فالإيمان عنده لم يكن عاطفة غامضة وتصديقا عاطلا من الأسباب العقلية ولكنه قبول عقلي لمجموعة حقائق، فيقع على العقل مهمة قبل الإيمان وبعده، فالعقائد الأصلية الأولى قد أثبت بها المسيحية، وطالبت باعتقادها وعلى العقل من بعد أن يعرف هذه الحقائق الإيمانية، أي أن على العقل أن يحول

(١) نشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء، العدد ٣١، عام ١٩٩٨.

(٢) حسن حنفي: نماذج من الفلسفة المسيحية ص٣، جونو: الفلسفة الوسيطية ص٣١، والمدة التي تبدأ بظهور المسيحية حتى القرن التاسع تسمى بمرحلة عصر آباء الكنيسة، أما فلسفة العصور الوسطى فتبدأ على وجه التدقيق في القرن التاسع وتنتهي تقريبا في القرن الرابع عشر الميلادي. (عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى ص ١٥).

هذه إلى حقائق يقينية معقولة، فالإيمان أولا، ثم يأتي العقل بعد ذلك فيحل الشيء من حقيقة إيمانية إلي حقيقة برهانية [١]. وهذا ملخصه في قوله «تعقل كي تؤمن وآمن لكي تتعقل».

٣- آرائه العميقة وأفكاره الفلسفية الواضحة وقدرته على بسطها وعرضها بأسلوبه السهل المميز إذ إن له وقعا خاصا على أذن المتلقي، وقلب المستمع وتميز برقة وعذوبة ترقى به إلى مصاف الآداب العالمية [٢].

٤- عاطفته الإيمانية القوية وحسه الديني الظاهر في جميع توجهاته، وإقباله بالكلية على الله لدرجة الفناء، فضلا عن مميزاته الشخصية، إذ تميز بضمير نقي، وسريرة صافية وقلب طاهر وشعور رقيق وحس مرهف، يقول عن علاقة الإنسان بالله «أنت تحثه على أن يبحث عن غبطتك في تسبيحك لأنك خلقتنا لأجلك ولن يهدأ لنا قلب حتى يستقر فيك.

أولا: حياته:

ولد أوغسطين في طاجسطا، المعروفة بسوق الأهراس بنوميديا، بالجزائر عام ٣٥٤م، في بيت شريف من أب يقال أنه وثني، وأم متدينة متمسكة بمبادئ المسيحية هي «مونيكا» التي عملت على أن تربي ابنها على محبة المسيح والكنيسة.

دخل المدرسة الابتدائية صغيرا ثم انتقل إلى معهد شهير في «مادورا» وأخذ ينهل العلم من معلميه، ويصغي إلى دروسهم بشغف وشوق بعد أن ظهرت عليه ملامح الذكاء وعلامات النبوغ، إلا أن أصدقاء الشر جروه إلى مباذلهم ومفاسدهم فأطاعهم وفعل في تلك الأثناء شرورا عظيمة وموبقات مهلكة.

الحقيقة أن أوغسطين اتصف في هذه المرحلة، برهافة الحس وقوة العاطفة وشدة التأثر وورع قوي؛أضف إلى ذلك رغبة ملحة في انتهاب اللذات، والأخذ بأكبر نصيب من

(١) بدوي: المصدر السابق ص٣.
(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة المسيحية ص٣٥

طيبات الحياة، لهذا كانت نفسه ميدانا لصراع كبير بين نزعتين متضادتين، ، حاول جاهدا أن ينتصر على إحداهما، وبالفعل تحرر من أمر الجسد وربقة المادة وشهوات النفس.[١]

على أي حال عاد أوغسطين ثانية إلى الطريق المستقيم والجد والاجتهاد، وأكب على دراسته الجامعية؛فدرس اللاتينية وفن الخطابة والمحاماة، ثم أنهى دراسته وعاد على مسقط رأسه لكي يسافر ثانية إلى قرطاجة، حيث أسس مدرسة لتدريس الخطابة فذاع صيته وانفتحت أمامه أبواب الشهرة لذلك وجد أن قرطاجة لا تفي بطموحه ورغبته في الاستزادة من العلم والثقافة، ومن ثم توجه شطر روما التي كانت تمثل كعبة الثقافة وقبلة القصاد وقلب العالم المتحضر وقتذاك، للبحث عن إجابات شافية لما حاك في صدره من أسئلة حائرة وقلق شديد، ولم يمكث طويلا فيها بل ذهب إلى ميلانو عام (٣٨٤)وساعدته براعته الخطابية في تعيينه أستاذا لفن البيان في تلك المدينة، وكأنما كانت العناية الإلهية تدخر له مفاجأة كبيرة ساعدته فيما بعد للوصول إلى اليقين؛إذ تعرف على القديس امبروزوا وأخذ يتردد على الكنيسة يستمع في عمق إلى عظاته وشرحه الروحي للكتب المقدسة وتفنيده لحجج المانوية نسبة إلى ماني بن فاتك (ت٢٧٦م).

ويقال أن أوغسطين اجتاحته موجة عاتية من القلق والحيرة والشك، كالتي تعتري كثيرا من المفكرين في بحثهم إلى الوصول للحقائق اليقينية مثل الغزالي (ت٥٠٥هـ) وديكارت (ت١٦٥٠)هذا علاوة على أن مشكلة وجود الشر داخل العالم قد حيرته حيرة شديدة، كيف جاء إلى هذا العالم، وما مصدره؟.ووجد بصيصا من النور عند المانوية، إذ إنها ترجع حدوث الشر في زعمها إلى إله الشر، فأصبح «سماعا» فيها وظل يقتفي أثرهم تسع سنوات يسمع منهم آملا أن تكشف أفكارهم عن الكثير من الصعوبات التي تعترض طريقه، وتحل العديد من المشكلات المعقدة التي سيطرت على نفسه هذه نقطة، والأخرى أن المذهب قد أرضي النزعة الحسية المسيطرة عليه فوجد تبريرا لاتجاهه الحسي المادي، ثم إن تقريرها بأن الشر عنصر أساسي في الطبيعة البشرية قدم له مسوغا لاندفاعه

(١) بدوي:فلسفة العصور الوسطي ص١٥

تجاه الشر، أي لاتجاهه نحو اللذات الحسية واغترافه من كأسها.[١]

إلا أنه لم يجد في مبادئها بغيته ولم ترو غليله على حد تعبيره، واتخمت أذنيه بالكثير من الخرافات عن السماء والشمس والقمر والنجوم، وعجزت عن شرح الموضوعات التي كان يأمل أن يسمع عنها إجابات شافية، وجاءت مواعظ القديس امبروزو، وتفنيده لحججهم وإظهار تهافت آرائهم قاصمة الشر، لذلك فقد حماسه تجاه هذه الفرقة، وبدأ في قطع صلاته بأصحابها وأخذ ينتظر بزوغ فجر جديد يرشده إلى الحقيقة[٢]، وينقذه من الشك التي بدأ يعانيها، ثم توفر على دراسة تساعيات أفلوطين السكندري (ت٢٧٠م)وآراء الأفلاطونية المحدثة وأعجبته في البداية فلسفة أفلوطين، إذ يغلب عليها الطابع الروحي، وتتميز بمنهجها التأملي الباطني، ومحاولتها تحرير الإنسان من ربقة الجسد وشهوات النفس وشوائب المادة، لاسيما وهذه النزعات قد سيطرت عليه، والصعود بالنفس إلى مراقي الخير ومدارج النور حتى تفنى في الواحد.

لكن هذه الفلسفة في النهاية لم تقدم له تفسيرا عقليا مقبولا، عن خلق العالم، فضلا عن أن نظريتهم في الفيض تقول بفيض العقل والنفس والموجودات المادية عن الواحد[٣]. وهذا مخالف تماما للثالوث المسيحي:أي الآب والابن وروح القدس، وترتيب الموجودات عند أفلوطين متمايز لأن الأول أرفع شأنا من الثاني، والثاني أقل روحانية من الأول، في حين أن الثالوث في المسيحية متساو في الجوهر والذات.[٤]

من الجدير بالإشارة أن أوغسطين ظل بعيدا عن تأثير أرسطو ومدرسته، إذ إن فكره لم يكن يلائم مزاجه فضلا عن أنه يعتمد على الواقع، ولا يؤمن ولو ظاهرا بالحقائق العلوية، التي تعد الأساس الذي يقوم عليه بناء المسيحية المذهبي.[٥]

---

(١) بدوي:فلسفة العصور الوسطي ص١٧

(٢) أوغسطين: الاعترافات ص٨٤،٥،٨٥،يوسف كرم:الفلسفة المسيحية ص ٢٣

(٣) محمد الزيني:مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام ص ١٥٧

(٤) قنواتي:المسيحية في الحضارة العربية ص٣٠

(٥) بدوي:فلسفة العصور الوسطى ص١٨

وفي بحثه الدائب للوصول إلى اليقين طالع بفهم رسائل بولس الرسول، وكتب المسيحية وأخذ يتفهمها في ضوء ما اهتدى إليه من فلسفات مختلفة، علاوة على تفاسير القديس امبروزو، وكان من نتيجة ذلك أنه بدأ يؤمن بالمسيحية وحقائق الدين التي كان يرفضها من قبل، وبدأ يعتقد بأن كثيرا من مبادئها يمكن أن يتفق مع العقل، وأجدر به أن يؤمن بصدقها حتى إذا لم يستطع العقل البرهنة عليها[١].

وتحكي الروايات أنه ذهب إلى الريف حيث الهدوء والخلوة مع النفس، وراحة الذهن المكدود، وأخذ يراجع حياته وكيف انحرف عن محبة المسيح، فاتخذ له عشيقة ولدت له ابنا غير شرعي وكيف سقط في الرزيلة والأدناس والفضائح، حتى خيب رجاء أمه وكسر قلبها فلم يقبل العماد حتى الآن، وتذكر نصائحها ومحاولاتها المستميتة لتعديل سلوكه وبحثها الدائب عنه في كل مكان، وكيف سافرت ورائه من بلد إلى بلد لتسدية المشورة وتأخذه إلى طريق المحبة وتبعده عن رفاق السوء وغواية المفسدين ودنس الشيطان ودموعها الغزيرة وصلواتها الدائمة، بل هي التي أوعزت إلي القديس امبروزو توجيهه وتعميده، ولما رأى دموعها وحسرتها الشديدة على ابنها طمأنها قائلا لها:إن ابن هذه الدموع لا يمكن أن يهلك.

انفرد بنفسه يحاورها، أخذ يتأمل كل هذا وهو في صراع عنيف وجدل عقلي شديد، يقول أوغسطين: «استلقيت على ظهري تحت شجرة تين، تاركا لدموعي العنان ففاضت غزيرة وبكيت بكاء مرا بقلب منسحق وفي دوامة هذا العذاب ووسط الحيرة المدمرة بحثا عن طريق الحق والصواب واليقين، سمع صوتا خارجا من بيت قريب يغني مرددا:خذ واقرأ، خذ واقرأ، فاعتقد أن أبواب السموات قد فتحت له وأن الله قد قبل توبته واستجاب دعائه، وأن هذا الصوت أمر إلهي صدر من ملكوت السموات فتناولت يداه رسائل القديس بولس وقرأ «لا تعيشوا بالقصوف والسكر والمضاجع التي يستحى منها والعهر، ولا بالخصام والحسد، بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تهتموا بأجسادكم

(١) بدوي:فلسفة العصور الوسطي ص ١٨

لقضاء شهواتها» .[١]

انسكب النور في قلبه وأفاض السكينة على روحه وأشرق شعاعا غامرا على نفسه وتبددت دياجير الأوهام التي سيطرت على روحه أعواما وعاد إليه اليقين، فاشترى محبة الكنيسة والمسيح، وقبل المعمودية على يد القديس امبروزو وباع نفسه فداء للمبادئ المسيحية.

وإذا توقفنا أمام هذه القصة فعلينا ألا نشكك فيها أو نجازف برفض حدوثها؛، فالنفوس الطاهرة يلازمها الإحساس بالإثم دوما، وتشتد بها لحظات الندم حتى تسمع أصوات أعماقها ونداء الضمير الحي اليقظ من داخلها.

وهذا ما جرى لأحد الصوفية كما يحكي القشيري، إذ كان الفضيل بن عياض (ت١٨٧هـ) شاطرا من الشطار وقاطعا للطريق؛ويروى أنه في أحد صولاته وهو يرتقي جدارا من الجدران للسطو على احد البيوت، سمع تاليا يتلو قوله تعالى:﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد الآية ١٦] فندم وأناب وظل يردد قد آن، قد آن، وعاد إلى الطريق المستقيم وسلك مسلك الصوفية في الزهد والعبادة والتقوي[٢].

على أي حال عاد القديس أوغسطين إلى طاجسطا وعاش عيشة الزهد والتبتل عاكفا على العبادة زاهدا في طيبات الحياة منقطعا إلى الصلاة دائم الصوم، متأملا في الوجود، سالكا مسلك الرهبنة فرسم كاهنا، وظل يدافع عن المسيحية باذلا عظيم جهوده لكي يحررها من العادات الوثنية التي تسربت إلى كنيستها ، ثم سيم أسقفا، وظل باقي حياته مكافحا عن المسيحية، عاملا على نشرها، وقد أهلته عبقريته الفطرية وإخلاصه الغيور لواجباته الكنسية ليكون الزعيم الفكري للمسيحية في أفريقيا لاسيما وقد ظل أسقفا أكثر من ثلاثين عاما حاز في أثنائها شهرة طبقت أرجاء الإمبراطورية الرومانية.[٣]

---

(١) أوغسطين:الاعترافات ص ١٦٥/ ١٦٦

(٢) الرسالة القشيرية ج١/ ٧٢.

(٣) يوسف كرم:تاريخ الفلسفة المسيحية،وأيضا الموسوعة الفلسفية ص٧٤،جونو:الفلسفة الوسيطية ص٣١.

وانتهت حياته بعد أن شاهد المأساة الكبرى، إذ إن الغزو البربري اجتاح وطنه ورأى هزيمة مدينة النور والخير، مدينة الله» أمام جيوش الشر والظلام، وتوفي عام (٤٣٠م).

ثانيا :مؤلفاته :

١ – الاعترافات:

يعد من أشهر مؤلفاته؛وهو كتاب أقرب إلى التراجم الذاتية، يشبه اعترافات جان جاك روسو (ت١٧٧٨) والأيام لطه حسين (ت١٩٧٣)وقصة نفس وقصة عقل لزكي نجيب محمود (١٩٩٣).إذ سجل فيه سيرته الذاتية ومراحل حياته وتعليمه ورحلاته المتعددة من طاجسطا إلى قرطاجة وروما، وكذلك تطوره الفكري والروحي من الشك إلى دخوله المانوية، ثم اعتناقه أفكار الأفلاطونية المحدثة ثم الإشراق الإلهي ووصوله إلى اليقين.وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية وله شهرة عالمية.

٢ – مدينة الله:

كتاب في فلسفة التاريخ حدد فيه خصائص مدينة الله ومدينة الشر أو المدينة الأرضية، وكيف أن النصر في النهاية للخير والنور والسلام، وتحدث أيضا عن الفلسفة وأبعادها، ورأى أن المسيحية هي الفلسفة الحقيقية.

٣– الرد على الأكاديميين.

٤ – في النظام.

٥– في الحياة السعيدة. **٦ – مناجيات.**

وهذه الكتب تمثل طورا في حياة أوغسطين الروحية إذ انتقل في هذا الطور إلى الإيمان حقيقة.[١]

٧– العديد من المحاورات الفلسفية، ومنها كتاب «المعلم» الذي نشره د.حسن حنفي فضلا عن العديد من المؤلفات الأخرى.[٢]

(١) بدوي:فلسفة العصور الوسطي ص١٦

(٢) جونو:الفلسفة الوسيطية ص ٢١

مجمل لآرائه:

آراء القديس أوغسطين متعددة الجوانب، كثيرة الأبعاد متسقة في أهدافها؛فقد اعتقد أن معرفة الله، تعد معرفة فطرية مركوزة في الفطرة البشرية، ولا مجال لتسرب الشك إلى عقل الإنسان في ذلك.

وآمن بوجود العالم من جهة قوة عاقلة صانعة مدبرة، أوجدته على هذا النحو من النظام والتناسق والترتيب.

ويرى أن الوجود الطبيعي والإنساني جاء بفضل خيرية الله.فقال:لأن الله خير فنحن مجودون.لذلك رفض نظرية الفيض كما هي عند أفلوطين، وآمن بأن النفس جوهر روحي شفاف مخالف للجسم، صدر عن الله الخالق وأنها لا تفني ولا تموت.

وأعتقد أن الشر بالذات لا يوجد في هذا العالم، وأن الإرادة الإنسانية خيرة بطبيعتها وعندما تنحرف عن المنهج السوي والطريق المستقيم تصبح شريرة .ومن هذا الإجمال إلى شيء من التفصيل.

ثالثا :فلسفة أوغسطين:

١ - البرهنة علي وجود الله:

تعد قضية وجود الله من القضايا المهمة التي ناقشها أوغسطين باستفاضة كبيرة وأفرد لها الصفحات العريضة وعندما توقف أمامها، لم يكن ذلك من أجل تأكيد هذا الوجود أو إثباته في قلوب المؤمنين، بالطبع لا، لأن اتجاهه الديني العميق، وتجربته الروحية العريضة، جعلته يعتبر قضية الوجود الإلهي، حقيقة مقررة من الفطرة البشرية، والعقل الإنساني، وفكرة بديهية واضحة بذاتها نسلم بها جميعا بدون برهان، وهذا الوجود أكبر من شك المتشككين وإنكار المنكرين؛فالله عند أوغسطين ليس متعالياً على الكون ولكنه مباطن للكون حالِ فيه وللإنسان معاً فهو حاضر حضورا مباشراً.

هذا التصور أو الاعتقاد في وجوده تعالى، ليس تصورا مجردا؛أي ليس فكرة عقلية ندركها فحسب، ونبرهن عليها بحجج ضعيفة أو قوية أو جدل ممقوت، بل هو وجود

حقيقي في النفس وفي الكون، يراه الناس ويشعرون به من خلال آثاره ونعمه، وهو حقيقة باطنية يشعر بها كل فرد مسيحي.[١]

بالرغم من هذا يسوق أوغسطين براهينه على وجود الله على النحو الآتي.

- **البرهان الأول**:إن من يتأمل داخل ذاته يكتشف أن بها حقائق عديدة، وعلة ذلك من الضروري أن يكون من جنسها، فهناك إذن موجود أزلي قادر حكيم وهو الله، فالماهية التي نتصورها عن الله في نفوسنا تقتضي الوجود، ففكرة الله المغروسة في نفوسنا تقتضي وجوده أيضا، فالله إذن موجود.[٢]
- **البرهان الثاني**:يتعلق بجمال الكون ونظامه، واتساق مظاهره، وهذا الجمال والنظام يكشف عن موجود قادر فاعل فنان، رتب هذا الوجود على هذا النحو، فكل ما نراه من حولنا؛من أرض وسماء وزرع وماء وسهول وهضاب ووديان وجبال، كل هذا الإبداع في الكون والتغير المستمر والحركة الدائبة داخله وهذا النظام الخفي والظاهر، كل هذا يعلن بجلاء عن وجوده الحي بيننا جميعا.[٣]
- **البرهان الثالث**:يتعلق بالتغير المستمر داخل الكون، فكل شيء يأخذ صورة مضادة له؛ فمن الحياة يولد الموت، ومن الموت تخرج الحياة، ومن الليل ينبثق النهار، ومن النهار يدخل الليل، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون هذا الوجود هو الذي أعطى الصورة، أي وجود علة واهبة للصورة وهذه العلة هي الله.[٤]

لذلك يتلخص اعتقاد أوغسطين في قوله:أومن لأتعقل، لأن العقل سوف يبدأ دوره بعد الإيمان، فمن يعتقد أن الله موجود عن طريق الإيمان يستطيع أن يرى الله مباشرة عن طريق العقل إذ إن الله هو هذا الوجود الخير والكلي والشامل.[٥]

---

(١) حسن حنفي:نماذج من الفلسفة المسيحية ص ٢٨
(٢) بدوي:فلسفة العصور الوسطى ص ٢٦
(٣) يوسف كرم:تاريخ الفلسفة المسيحية ص٣٣
(٤) بدوي:المصدر السابق ص ٢٦
(٥) اتين جيلسون:روح الفلسفة المسيحية ص ٧٩

٢- صفات الله:

يخلع القديس أوغسطين على واجب الوجود، كل صفات الكمال والجمال والجلال؛فهو الاسم المقدس وهو الوجود الكامل، اللامتناهي واللامحدود، والإله الواحد العالم، علما محيطا كليا شاملا للكليات والجزئيات، إذ لا يخفي عليه شيء بل هو يعرف كل شيء «وعلم الله ليس حادثا ولا متعلقا بحادثة دون أخري وليس يتم الانتقال من فكرة إلى أخرى، وليس علما لما حدث فيه، بل علم لما حدث ولما هو حادث ولما سيحدث، كلها دفعة واحدة وفي حضرة الإله مرة واحدة، وهو الأزلي؛فليس له بداية والسرمدي؛ليس له نهاية. (١)

وهو الحق العظيم المبدع، وهو الخير بالذات وأفعاله كلها خير، وكلها - كما نري - صفات إيجابية، وفي مقابل هذه الصفات الإيجابية، ينفي أوغسطين كل صفات النقص والسلوب عن الله، فالله منزه عن الجسمية والبعضية، إذ لا يملك أعضاء كبيرة أو صغيرة.

وبالرغم من حلوله في جميع الأماكن وحضوره حضورا قويا، خفيا وظاهرا في كل مكان، ووجوده المتسامي منا ومعنا، إلا أن المكان لا يحده بحال من الأحوال، فهو منزه عن المكان، وهو محيط بالأمكنة وهي لا تحيط به، وهو منزه عن الفساد، لأن الذي يفسد هو أدني وأنقص؛ ثم يمضي القديس أوغسطين شارحا صفات الله تعالى فيقول: الله أعلى من كل شيء وأكمل من كل الموجودات، وهو أيضا لا يتغير ولا يتبدل لا شكلا ولا حركة، والله سبحانه مريد بإرادة وإرادته ذاته، وهو القادر بقدرة وقدرته ذاته. (٢)

من الجدير بالإشارة في هذه المسألة أن أوغسطين يوحد بين الله وصفاته، فلا توجد صفات خارج الذات يقول: «الإرادة والقدرة في الله هما الذات» .

وهذا يذكرنا بتوجه المعتزلة فيما بعد بالتوحيد بين الله وصفاته لاسيما كما نري عند أبي الهذيل العلاف (ت٢٣٥هـ) (٣)

---

(١) بدوي:المصدر السابق وأيضا:،الاعترافات ١٢٦

(٢) الاعترافات ص ١٠١/ ١٢١/ ١٢٦/ ٢٧١

(٣) الملل والنحل ج١/ ٥٣،وأيضا محمد الزيني:أبو الهذيل العلاف وآراؤه الكلامية ص ٥٣

٣- العالم.

أشرنا سابقا أن أوغسطين لم يطمئن لنظرية الفيض كما هي عند أفلوطين السكندري، بل رفضها وذلك بسبب قولها:بأزلية العالم وقدم المادة، وأن العالم فاض عن الله بلا إرادة فعالة وأن الحتمية المطلقة هي الحقيقة الثابتة في وجود الكون، أضف إلى ذلك أن من نتائج هذا المذهب وحدة الوجود بين الله والعالم.(١)

لذلك يذهب أوغسطين بعيدا عن نظرية الفيض، لكي يقرر نتائج مضادة تماما لهذه النظرية، ففي أثناء تأمله في الموجودات:الماء والنجوم والكواكب والأرض والبشر، أدرك إدراكا واضحا أن هذه الموجودات مخلوقة من قبل قوة عاقلة، وأن هذا العالم بكل ما فيه لم يأت نتيجة مصادفة عمياء أو قوانين مجهولة، وإنما قد صنع صنعا محكما بسبب قوة حكيمة عليا تعلم ما تصنع وما تدبر وتعرف كل ما تفعل.(٢)

ويتصور أوغسطين حوارا بينه وبين الموجودات؛الأرض وما عليها، البحر وكائناته الحية، رياح الجو ومملكة الهواء.السماء والشمس والقمر والنجوم، ويسأل كل هذه المخلوقات؛هل أنتم إلهي؟

فتجيبه كلها: «لسنا الإله الذي تتحدث عنه إن إلهك هو خالقنا ومبدعنا»(٣)

وهذا الخلق الإلهي للعالم تم من لاشيء، ولكنه سبحانه أوجده من العدم؛أي أن المولى عز وجل أخرج المادة من العدم ثم خلق منها العالم، فالمادة لم تكن أساسا ولم يكن لها شكل ولا صورة، ثم أوجدها فأتى منها بالعجائب المذهلات، فخلق منها الفلك والسماء والأرض بكلمة واحدة هي «كن فيكون».

فالله الموجد هو خالق الهيولي من العدم، ووجود الله هو وجود بذاته، في حين أن

---

(١) محمد الزيني:مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام ص١٦٢،من المعلوم أن أوغسطين بعد أن مال ميلا شديدا لآراء الأفلاطونية المحدثة،تحرر بعد ذلك من أغلبية آرائها لاسيما التي تخالف منهجه وتتعارض مع العقائد المسيحية.

(٢) جيلسون:روح الفلسفة المسيحية ص٢١٧

(٣) الاعترافات ص ٢٧

الأشياء وجودها بغيرها، وعلى هذا فهي مختلفة في وجودها عن وجود الله تماما.[١]

ويميل أوغسطين إلى تقرير فعل الخلق الذي تم في ستة أيام كما هي في الكتب المقدسة.[٢]

لكنه يميز تمييزا واضحا يمتنع معه اللبس والغموض، بين الزمان الإلهي اللامتناهي، والزمان عند البشر المحدود، إذ إن الله هو خالق الزمان، ولا زمان قبله وهو الذي صنع كل الأزمنة، وهو فوق الأزمنة.

ويرى أوغسطين أن الله يتصف بصفات الخير والكمال والجمال، لذلك فالعالم موجود، ثم يخلع هذه الصفات نفسها على الموجودات لكن مع الفارق في تعينها في هذا العالم الحسي، عكس العالم الإلهي.

فلما كان الله موجود وجدت الأشياء من العدم، ولأنه جميل كانت الأشياء جميلة، ولأنه خير كانت الأشياء خيرة.فالعالم فيض من خير الله ودليل على إرادة الله ومرتب حسب عقل الله.[٣]

وفي الوقت نفسه ينكر أن يكون الكون متحركا هكذا بلا رعاية أو عناية أو بلا هدى أو غاية كما ذهب إلى ذلك أرسطو ومن بعده أبيقور (٢٧٠ق.م)[٤] وإلا سقط في الهاوية وجرى عليه الفساد، وأصابه الفناء والعدم.

ولكن هذا الكون موصول الصلة بالله من خلال عنايته به فهو يرعى كونه المخلوق، ومدده لا ينقطع أبدا عنه، وكل شيء داخل هذا الوجود يستمد وجوده وكيانه وفعله وحركته ونموه وازدهاره وارتقائه، من الله الكامل الأزلي، إن العالم يتحرك بواسطة القوانين الإلهية السارية داخله.[٥]

---

(١) بدوي: مصدر سابق ص ٢٩

(٢) الاعترافات ص٢٧،جيلسون: روح الفلسفة المسيحية ص ٢١٨

(٣) جيلسون: روح الفلسفة المسيحية ص ١٩٢،بدوي:مصدر سابق ص ٣٠

(٤) بدوي: أرسطو ص ١٧٦،أميرة مطر:الفلسفة عند اليونان ص ٢٨٣/ ٢٨٨

(٥) جيلسون:مصدر سابق ص ١٠٢

نستنتج مما سبق أن آراء أوغسطين في هذه القضية تتفق تماما مع ما قررته الفلسفة الرواقية قبل ذلك، فالله عندها خلق العالم وهو مباطن فيه وليس مفارقا له، وهو عقل مدبر يكلأ بعنايته كل شيء في العالم. (١)

٤ - الزمان:

في بداية تناوله لمشكلة الزمان (٢)، يقف أوغسطين أمام هذه المشكلة السهلة الممتنعة حائرا مترددا فهو يعرف ما الزمان، ولكنه لا يستطيع أن يشرحه أو يحلل أبعاده، أو يقدم له تعريفا جامعا مانعا على حد تعبير المناطقة، ويتحير في ذلك قائلا: «إن لم يسألني أحد عنه فإنني أعرفه أما أن أشرحه فلا أستطيع» . (٣)

ومع هذه الصعوبة التي يواجهها فهو لا يني أن يحاول محاولة جادة ورائعة لتقديم تحليل مقنع لطبيعة الزمان وتصور شامل له، فينظر إليه نظرة كلية مستوعبة ويخرج من كل هذا برؤية واضحة لطبيعة الزمان وأبعاده.

يري أوغسطين أن الزمان وحده متصلة مترابطة يتكون من الماضي والحاضر والمستقبل، هذا ما يتراءى لنا ولكنه يتعمق هذه «الآنات الثلاثة» المكونة للزمان، فيرى أننا لا نملك الماضي لأنه ولى وانتهى، وماتت آناته من الوجود،

والمستقبل لم يأت بعد فهو مازال يعيش في عالم السر والخفاء، ولا نستطيع أن نعترف بوجود زمان إلا بالحاضر الذي هو ملك أيدينا.

وما هو الحاضر إلا هذه «الآن» اليتيمة التي ليس لها ماضي ولا مستقبل فهي التي تأتي إلى الوجود ثم تختفي وتولي في التو.

ثم يناقش فكرة أن هذا الوقت طويل أو قصير، فينفي وصف الماضي بالطول أو بالقصر فيقول:لا يجوز أن نقول كان الماضي طويلا، لآن اللحظة السعيدة قد انقضت

---

(١) أميرة مطر:الفلسفة عند اليونان ص ٤٠٥،وراجع أيضا عثمان أمين:الفلسفة الرواقية

(٢) راجع في هذا الموضوع د. عبد الرزاق قسوم:مفهوم الزمان عند ابن رشد ص٤٣(طبعة الجزائر)

(٣) الاعترافات ص ٢٤٩

وانمحت من الوجود، فلم يعد لها وجود نابض فكيف نصفها بالطول، أما الذي يجوز وصفه بهذه الصفة فهو الحاضر، لأنه مازال مستمرا في الآن، فنقول:كان الحاضر طويلا وهي صفة ملازمة له لأنه حي يعيش بيننا، ولم يضع ويندثر في اللاوجود، وما أن ينقضي ويتحول إلى الماضي تزول عنه الصفة مباشرة.

ويدلل أوغسطين بجميع أنواع الأدلة ويسوق العديد من الحجج على صحة وجهة نظره في أن الزمان يتكون من وحدات ثلاث لا نملك منه إلا الحاضر فقط.فيقول: لو تصورنا أن أمامنا مائة سنة حاضرة فسوف لا نرى منها إلا سنة واحدة أولى، وإذا فرضنا أنها هي الحاضرة والباقي مازال مستقبلا لا وجود له ثم نظرنا إلى السنة الثانية، فسنجد أن الأولى قد مضت، والثالثة مازالت في عالم الخفاء أيضا وهكذا .

ثم أخذنا السنة الأولى نفسها وقسمناها إلى أجزاء أي إلى شهور والشهور إلي أسابيع، والأسابيع إلى أيام ثم إلي ساعات والساعات مؤلفة من دقائق وثواني، والحاصل أننا سوف نجد في النهاية أننا لا نملك من المائة سنة إلا هذه الثانية فقط التي مازالت حاضرة.

أما ما مضي فقد انصرم واختفى في اللاوجود، والباقي لم يأت بعد ولم يزل جنينا لم يولد، ومن ثم فكلاهما غير موجود الماضي والمستقبل، والملموس الدفاق هو الحاضر فقط.[١]

من كل هذه الوقفات والتحليلات يخلص إلى أن «لا وجود للمستقبل ولا للماضي، ومن الخطأ القول بوجود ثلاثة أزمنة، الماضي والحاضر والمستقبل، والأصح أن نقول في الكون أزمنة ثلاثة:حاضر الماضي، وحاضر الحاضر وحاضر المستقبل، هذه الطرق الثلاث موجودة في عقلنا ولا أرى لها وجود إلا فيه، فحاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر الأشياء الحاضرة هو الرؤية المباشرة، وحاضر الأشياء المستقبلة هو الترقب» .[٢]

من الواضح للعيان أن الزمان عند أوغسطين في التحليل النهائي، لا يوجد خارج

(١) الاعترافات ص ٢٥٣:٢٥٠

(٢)الاعترافات ص ٢٥٤

ذواتنا وليس له وجودا مستقلا عنا بل وجوده داخل مشاعر الإنسان، متمثلا ثلاث قدرات للنفس الإنسانية؛قدرة الذاكرة على استرجاع الماضي، والقدرة على الانتباه والتركيز في مجريات الشعور، والظاهرات التي تمر بنا الآن في الحاضر ثم القدرة على التوقع وانتظار ما يسفر عنه المستقبل المجهول.(١)

الحقيقة أن رأي القديس أوغسطين فيه دقة وعمق وإحاطة وشمول وقد أصاب كبد الحقيقة؛فهو ينظر إلى الزمان من خلال تأثيره في الإنسان، وانعكاسه على مشاعرنا وانفعالاتنا ووجودنا الذاتي جملة، ونحن جميعا لا نملك من الزمان إلا اللحظة التي نعيشها ونتنفس فيها، ونستمتع بها ونمارس فيها حياتنا بجميع أشكال الممارسة اليومية من خلال هذا «الآن» الفريد الذي ليس له ماض وليس لها مستقبل، ومن خلال هذا المجموع من «الآنات» يتكون الزمان الشعوري عند الإنسان، فهو لا يملك الزمن ولكنه يدركه بإحساسه وشعوره، يدرك ماضيه بالتذكر حينما يستعيد كل «الزمان الماضي» من خلال الذاكرة أو العقل، ويدرك أيضا مستقبله من خلال الأمل والحلم والتوقع أو تخطي الحواجز بقدرته علي التصور فيعيش في مستقبله دون أن يأتي بل يمارس أحيانا حياة خيالية في هذا المستقبل.

أما الموجود المدرك المعيش فهو الحاضر بعينه الذي نملكه وندركه في آن واحد قبل أن يفلت من بين أيدينا، ولذلك نحن لا نملك إلا زمانا واحدا هو «الحاضر» ، وندرك زمنين إدراكا شعوريا باطنيا هما الماضي والمستقبل دون أن نملكهما.

٥- النفس:

النفس موجودة وجودا دائما حيا وفعالا للوجود الإنساني، هذه قضية مسلم بها، إذ هناك شيء ما وراء هذا الجسم المحسوس، وكل منا يدرك تمام الإدراك عن فهم واقتناع أن هناك قوة أخرى خفية تحرك هذا الجسم المادي البادي للعيان.

---

(١) عبد الرحمن بدوي:الزمان الوجودي ص ١٠٠،ولمزيد من الإحاطة بمفهوم الزمان عند متكلمي الإسلام وفلاسفته لاسيما ابن سينا وابن رشد،راجع كتاب د.عبد الرزاق قسوم:مفهوم الزمان في فلسفة ابن رشد ص ٥٣ وما بعدها.

من خلال تأمله الطويل وتساؤله الدائم وبحثه المتعمق؛يصل أوغسطين إلى دليل واضح وقوي على وجود النفس يعتمد على تحليل مفهوم الإنسان وطبيعته الذي يشمل جانبان:الإنسان الخارجي والإنسان الباطني، وكلاهما يتمايز تمام التمايز عن بعضهما البعض.

فالأول:يتميز أنه ظاهر محسوس مرئي له طول وعرض ومتحيز في مكان، وله حواس يطل بها على العالم الخارجي يدرك بها الموجودات المادية.

الثاني:يتميز بالفكر والعقل والإرادة، وهي جميعا قوي خفية غير مرئية باطنة في «جوانية» الإنسان، مدركة للمجردات والعقليات وموجهة لأفعال الإنسان الخارجي، وهي تعرف وتعقل العالم الخارجي بواسطة الحواس الباطنية «إننا نتحدث إلى أنفسنا داخليا دون إصدار أي صوت وتفكيرنا في الكليات فحسب وعندما تنشط الكلمات المخزونة تظهر الأشياء نفسها في النفس» (١)

والإنسان الباطني أفضل من الإنسان الخارجي؛أي أن النفس أفضل من الجسد وأثمن منه لأن الفكر هو الذي يحرك الجسد، فالنفس آمرة والجسد مأمور.

يقول أوغسطين في عبارة موجزة بليغة وهو بصدد التدليل على وجود النفس: «عدت إلى نفسي وقلت لها:وأنت من أنت؟

وأجبت:أنا إنسان في خدمتي نفس وجسد، إحداهما خارجي، والآخر باطني» . (٢)

ويلخص د.إبراهيم مدكور برهنة أوغسطين على وجود النفس فيقول: «ذهب إلى أن الجسم والنفس حقيقتان متمايزتان تمام التمايز، ففي حين أن الأول يشغل حيزا وله طول وعرض وعمق، لا حيز للثانية مطلقا وخاصتها الوحيدة هي التفكير.ومن أجل هذا كان شعورنا وإدراكنا لها مباشرا، فإن الفكر لا يحتاج إلى واسطة في فهم ذاته.وما دامت النفس مفكرة فهي موجودة لأن تفكيرها يساوي وجودها تمام المساواة، وقد يستطيع

(١) الاعترافات ص ١٩٤،وأيضا حسن حنفي:نماذج من الفلسفة المسيحية ص ٣٩
(٢) الاعترافات ص١٩٨.

الإنسان أن يتجرد عن جسمه وعن العالم الخارجي في كل مظاهره، وأن ينكر الحقائق على اختلافها ويشك في كل شيء إلا نفسه التي هي مصدر شكه ومبعث تفكيره فإنه لا يجد إلى الشك فيها سبيلا» .(١)

يذهب أوغسطين إلى أن النفس جوهرة نورانية روحانية، وهذه خاصية أساسية من خصائصها بسبب تميزها عن الجسم المادي، وهي قضية سلم بها الكثيرون من الفلاسفة اليونان والمسلمون، وأولهم أفلاطون وأفلوطين وابن سينا وبعض من متكلمي الإسلام.

وبالرغم من تسليم أوغسطين بروحانية النفس إلا أنه يرفض مقولة أفلاطون في قدم النفس ووجودها في عالم المثل ثم سقوطها في الجسد بفعل الخطيئة كما صورها في محاورة فايدروس.(٢)

ورفض أيضا قول أفلوطين بقدم النفس ووجودها السابق في العالم العلوي ثم هبوطها إلى العالم السفلي بسبب الخطيئة، وأنها فاضت عن النفس الكلية التي فاضت بدورها عن العقل الفعال حيث تقع في المرتبة الثالثة من فيض الموجودات، وتحوي كل المعقولات التي تفيض عليها من العقل الفعال.(٣)

ويذهب في تقسيمه للنفس إلى التقسيم الثلاثي الأفلاطوني الشهير فيقسمها إلى؛ نفس عقلية، ونفس غضبية، ونفس شهوانية، ويرى أوغسطين أن النفس مخلوقة حادثة من الله الذي قدر لكل جسما نفسا تحل فيه، وتسيطر عليه وتوجهه، ولما كانت النفس جوهر روحاني لا يسري عليه الفساد ولا الفناء ولا يدركه العدم فهي إذن خالدة.(٤)

٦- الحرية الإنسانية:

تعد مشكلة الحرية الإنسانية من أعقد المشكلات التي فرضت نفسها على التفكير البشري منذ وعيه وإدراكه، ومحاولة فهمه لأسرار هذا الوجود لذلك ساهمت معظم

---

(١) في الفلسفة الإسلامية ج٢/ ٧٨

(٢) أفلاطون: محاورة فايدروس ص٣١ (ت. د.أميرة مطر،دار المعارف،القاهرة)

(٣) محمد الزيني: مشكلة الفيض ص ٣٨

(٤) يوسف كرم: الفلسفة المسيحية ص ٣٨،بدوي: فلسفة العصور الوسطي ص ٣٢

الحضارات في تقديم حلول متعددة.

ومن البديهي أن أوغسطين لم يغفل بحال مشكلة كهذه مهمة وخطيرة دون أن يناقشها ويدقق فيها ويطرح لها الحلول العملية التي تتفق والعقل الإنساني، منحازا في نهاية المطاف لحرية الإنسان لاسيما وهو يري «شهادة واضحة جدا لهذه الإرادة الحرة في كل نصوص الكتاب المقدس» (١)

موقف أوغسطين واضح كل الوضوح، فهو يقرر حرية الإنسان صراحة ودون أدني غموض، فالإنسان له إرادة فاعلة مدبرة يريد أو لا يريد، يختار أو لا يختار، يفعل أو لا يفعل، فالإرادة هي القدرة على اختيار الأفعال وفعل الإرادة هو نفسه فعل الحرية، وهذه الإرادة الصلبة التي تتغلب على العوائق فتنتصر أحيانا وتصل إلى بغيتها، وتنهزم أحيانا أخرى ولا تحقق أهدافها، هي التي توصلنا إلى الله، وتؤكد وجوده دوما.

ويدلل أوغسطين بأدلة عقلية كثيرة على هذه الحرية التي نلحظها في حياتنا وندركها بأفعالنا:

– التكليف الإلهي للإنسان الذي يتضمن مجموعة الأوامر والنواهي، أفعل ولا تفعل، لا تقتل لا تسرق لا تزني، هي أوكد الأدلة على قدرة الإنسان على إطاعة الأوامر واجتناب النواهي، والتكليف في حد ذاته يتضمن مبدأ الحرية، وإلا فيما التكليف إذا لم يكن الإنسان مستطيعا لتنفيذ الأمر الإلهي والتكاليف الشرعية.

– الثواب والعقاب، كنتيجة محققة للتكليف، فالذين ينفذون الأوامر وينصاعون للطاعة ويفعلون الخيرات، ينالون الثواب متمثلا في الجنة، والذين يولون وجوههم بعيدا عن الخير وينغمسون في فعل الشر وعصيان الأمر الإلهي يعاقبهم الله – عز وجل – بعذابه الشديد.

– شهادة العقل، فكل إنسان يستطيع أن يميز أفعاله الاضطرارية والاختيارية، ويدرك في أعماق نفسه أنه قادر على هذا الفعل وقادر على ترك مثيله، والجدال في ذلك لغو

(١) جيلسون:روح الفلسفة المسيحية ص ١٩٠

فارغ «إذا لم تكن الإرادة التي بها أريد ولا أريد ملكا لي فلست أدري ما الذي أستطيع أن أقول عنه أنه ملك لي» . يقول أوغسطين:لقد كنت قادرا مبدئيا أن أقوم بالأعمال وألا أنفذ عمليا لو لم تطاوعني أعضائي ولو لم أرد أن أعمل ما بوسعي ،ولم أعمل ما كنت أتوق إليه ولا قدرت أن أعمل حين أردت أن أعمل، إنما حسبي أن أريد شيئا بإرادة صحيحة حتى أحقق ما أريد، الإرادة والقدرة على التنفيذ أمر واحد» .[١]

ويقف أوغسطين أمام علاقة النفس بالجسد لكي يحلل طبيعة هذه العلاقة متأملا خضوع الجسد لأدني إشارة تصدر إليه من النفس فيقوم بتنفيذها، والانصياع لها، افعل فيفعل، حرك هذا العضو فيحركه، سكن هذا العضو فيسكنه.

أما النفس فلا تخضع لذاتها ولا تطاع من قبلها، ويعلل ذلك بأن الجسم الإنساني يتكون من عنصر مادي فهو أقل درجة من النفس ومن ثم فهو مأمور وخاضع لها خضوعا كاملا، والنفس جوهر روحاني أعلى درجة من الجسم، إذ إنها من عالم آخر أسمى من عالم الماديات ومن ثم فهي آمرة.أضف إلى ذلك إن توجهات النفس متعددة وميولها مختلفة ورغباتها متباينة لذلك فهي «لا تريد إرادة كاملة ولا تأمر أمرا كاملا، لكنها تأمر بقدر ما تريد، وبقدر مالا تريد لا ينفذ أمرها»[٢]

ويضرب أوغسطين مثلا على ذلك، فيرى أن شهوات نفسه ورغباته والخطيئة التي وقع فيها كل ذلك تم بإرادته الحرة واختياره الصريح، وهذا كله من منطلق طبيعته البشرية التي تتكون من العنصرين السابقين الآمر والمأمور أو النفس والجسد.

مما يجدر الإشارة إليه أن هذه الحرية الإنسانية الفائقة التي يمتلكها الإنسان لا يمكن فصلها عن الحرية الإلهية، كما يرى أوغسطين، فالعلاقة بينها علاقة اشتمال كما يقول المناطقة، فالأولى أخص والثانية أعم، الأولى؛متناهية ومحدودة بإمكانياتها القاصرة، والثانية لا متناهية ولا محدودة، فالرب خالق الكل، لذلك لا سبيل إلى تبرير الحرية تبريرا

(١) الاعترافات ص ١٦٠
(٢) الاعترافات ص١٦١

كاملا إلا إذا سلمنا تسليما غير مشروط بأنها مستمدة من الحرية الإلهية.[١]

وبعبارة أخرى يقرر أوغسطين: حرية الإرادة ويوفق بينها وبين العقل الإلهي فيقول: كان في علم الله الأفعال الحرة للإنسان فهي باعتبارها معلومة لله قد وجدت في الفعل الأول، وباعتبارها تصدر عن الإنسان باختياره تعتبر اختيارا من جانب الإنسان[٢]

فضلا عن النعمة الإلهية التي هي عون للإنسان أو التي تباشر الأفعال الإنسانية فتباركها وتقودها إلى بر الأمان فهي ملازمة تماما لجميع الأفعال الخيرة الصادرة عن الإنسان.[٣]

الحقيقة أن النعمة الإلهية عند أوغسطين تماثل إلى حد بعيد «اللطف الإلهي» عند المعتزلة، إذ اللطف عندهم؛عون إلهي يأتيه الله للإنسان على سبيل المنحة والكرم والتعطف، ويوصف بأنه توفيق إذا وافق أمر الطاعة من العبد، وأنه عصمة من الله إذا امتنع المكلف من المعصية وتوقف عن إتيانها[٤].

وليس بالضرورة الذهاب إلى القول بتأثر المعتزلة بأوغسطين، وذلك لأن استجابة العقل الإنساني للقوة الكونية الجبارة المسيطرة على الكون تكاد تكون متشابهة في نتائجها وفي أساليب التعبير وطرق الإفصاح عن تلك الاستجابة.

فالضعف الإنساني الماثل لكل عاقل أمام مظاهر الطبيعة القوية والفتاكة والمدمرة، تدفعه دائما وباستمرار إلى استمداد المدد من القوة الخفية الظاهرة التي تقف وراء هذا الكون وطلب المعونة بشكل دائم وهذا ما نراه عبر العصور وفي كل الحضارات، أي توجه الإنسان إلى الله يطلب منه العون فيفيض عليه خيره العميم.

زد على ذلك أن الآيات القرآنية حافلة بذلك ومعبرة بأوضح أسلوب؛أن الله أقرب للإنسان من نفسه التي بين جنبيه وهو الهادي للرشاد وللطريق المستقيم فهو محقق الرجاء

---

(١) الموسوعة الفلسفية ص ٧٦

(٢) بدوي: فلسفة العصور الوسطى ص ٣٤

(٣) يوسف كرم: الفلسفة المسيحية ص ٤٢

(٤) عبد الجبار: المغني ج١٣/ ٥١٤

ومجيب الدعاء للمضطر إذا دعاه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة ١٨٦].

٧- الخير والشر:

تعد مشكلة الخير والشر من المشكلات العويصة التي واجهها الإنسان على مر تاريخه الطويل ووقف أمامها متأملا متسائلا: كيف نفسر هذه الشرور التي يعج بها العالم؟

ومن الذي خلقها؟ وإلى من تنسب؟ تعددت الإجابات بتعدد الحضارات واختلفت الآراء باختلاف وجهات نظر الفلاسفة.

هذه المشكلة أقضت مضجع القديس أوغسطين - صاحب القلب الطيب والضمير النقي والنفس الشفافة - وحيرته حيرة شديدة، وأثقلته بأنواع من الوساوس والشكوك وملأت نفسه ضنكا وتعذيبا على حد تعبيره.[١]

ظل وقتا طويلا يبحث عن مصدر الشر، وتساءل كيف وجد الشر في العالم؟ وهل ينسب إلى إرادة الإنسان وأنها هي التي أخرجته من العدم إلى الوجود؟ لكن من الذي صنع هذه الإرادة على هذا النحو؟ إنه الله الذي يصنع الخير والمحبة والعدل والكمال.

هل الشر يرجع إلى الشيطان؟ ومن الذي وهبه هذه الإرادة الشريرة طالما أن الله خلقه ملاكا وديعا؟

كيف دخل الشر إلى الوجود، ومن الذي خلقه؟

إذا كان الله هو الخير المحض والذي يفيض خيره على الوجود وهو صالح، ولما كان كذلك فكل مخلوقاته خيرة وصالحة أيضا، إذا أين يوجد الشر؟

إن لم يكن موجودا فلم نخاف مالا وجود له ونخشاه؟

إن خوفنا في حد ذاته شر حقيقي لأنه لا مبرر له وإما أن يكون الشر موجودا.

ولكن يبقى السؤال كما هو وتظل الإشكالية بلا جواب،

---

(١) الاعترافات ص ١٢٧

من أين يأتي الشر طالما أن الله ذاته صالح وخلق كل شيء صالح أيضا؟

كانت توجهات أوغسطين لحل المشكلة متعددة بعد أن استعصى عليه الحل وأظلمت أمامه السبل، فلجأ إلى المانوية لعله يجد تفسيرا مقبولا؛إذ ترجع الشر إلى إله الشر والظلام كما أن الخير يعود إلى إله الخير والنور.

إلا أن أوغسطين لم يطمئن لهذا الحل وداخله شك كبير فيه، ورأى أن هذا التصور بدعة فلسفية، تريب النفس أكثر مما تدخل الطمأنينة عليها، فولى وجهه ثانية شطر أفلوطين وعكف على دراسة فلسفته لاسيما قوله بفيض الموجودات الصادرة عن الله، فوجده يرجع جميع الشرور في هذا العالم إلى المادة التي تأتي في نهاية الفيض فهي مصدر الشر.

ولم يقتنع أوغسطين لأن الموجودات إذا كانت صادرة كلها عن الله وفائضة عنه، وهو خير محض وفيه كل صفات الكمال والبهاء والجمال.فكيف تلبست المادة بالشر؟

كان أوغسطين على ثقة كاملة أن الله ليس هو مصدر الشر بحال من الأحوال، فهذه قضية بديهية لا تحتاج إلى دليل، فالله مصدر كل عدل وهو مبدع الأشياء ومنظمها ومنسقها ما عدا الخطيئة.(١)

يقول أوغسطين: «طالما أن الشيء موجود فهو خير، وكل موجود خير، والشر الذي كنت أبحث عن علته ليس جوهرا، إذ لو كان جوهرا لكان خيرا، إما أن يكون جوهرا لا يقبل الفساد ومن ثم فهو خير عظيم، أو أن يكون جوهرا قابلا للفساد وهذا تناقض هكذا أدركت أن أعمالك كلها خير والشر لا ينسب إليك.(٢)

وهكذا بعد تفكير عميق وتدبر طويل، وجد أوغسطين نفسه وجها لوجه أمام الإنسان وأشار إليه بإصبع الاتهام ، إذ من الضروري أن يكون هو مصدر الشر وفاعله لأنه الوحيد من بين جميع المخلوقات الموجود العاقل المفكر المدبر الواعي والمتوتر المبدع،

(١) الاعترافات ص ١٧٠
(٢) الاعترافات ص ١٣٩

الذي يمتلك إرادة حرة تميز الأفعال ويصنع بواسطتها الخير والشر ومن ثم يحاسبه الله حسب أعماله.ولكن هذا الحل السهل سيطرح سؤالا آخر، كيف وهبنا الله حرية تخطئ وتفعل الشرور أليس هو الذي صورنا في أحسن صورة؟

الحقيقة في تصور أوغسطين، أن الإرادة خيرة من حيث هي قدرة على الاختيار، وهي رديئة شريرة حين تكون على غير ما ينبغي أن تكون، ومعني ذلك أن الشر القائم في داخل العالم ينبع أساسا من الإرادة الإنسانية نفسها.(١)

فالخير هو السير على مقتضي القانون الإلهي، أما الشر فهو مخالفة هذا القانون، فالخير شيء بالفعل، أما الشر فلا يمكن أن يعتبر وجودا حقيقيا، بل هو سلب محض، أي أن الشر هو سلب للخير، أي سلب للنظام، ولهذا فإن علة الخير هي علة فاعلة في حين أن الشر علة نقص فالخير شيء إيجابي وجودي، والشر نقصان وعدم.(٢)

يقول: «فتشت عن أصل الشر فلم أجده جوهرا بل فسادا في الإرادة التي تنحرف عن الذات السامية- عنك يا إلهي -إلى ما هو دنيء فتفقد صوابها» .(٣)

وهكذا يضع أوغسطين حلا عقليا مقبولا لمشكلة الشر، ويرجع نسبة الشرور إلى الإرادة الإنسانية التي تنحرف عن منهج السماء، وقوانين الدين وأوامر الله، وبهذا الحل يؤكد قيمة المسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان ويبرز أهمية الثواب والعقاب.

ثم يدور الزمن دورته وتعيد فرقة المعتزلة النظر في المشكلة، وتصوغ هذا الرأي ثانية لكن من وجهة نظر إسلامية؛فهي تؤكد أن الله تعالى منزه عن أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم لكان ظالما، وهو - سبحانه - لا يفعل إلا الصلاح والخير، والعبد هو الذي يخلق الشر ومن ثم يستحق على ما يفعله ثوابا وعقابا في الدنيا والآخرة.(٤)

---

(١) جيلسون:روح الفلسفة المسيحية ص ١٧٧

(٢) بدوي:فلسفة العصور الوسطى ص٣٦

(٣) الاعترافات ص ١٣٨

(٤) الملل والنحل ج١/ ٥٠،وأيضا محمد الزيني:أبو الهذيل العلاف ص ١٢٧

ومن الجدير بالذكر أن منهج المعتزلة في حل مشكلة الشر كان منهجا إسلاميا خالصا، معتمدا بالدرجة الأولى على القرآن والسنة وعلى نور العقل وقوة البرهان، ودليل الفطرة النقية وبصيرة القلب اليقظ، وصدق الحدس الإنساني.

٨- السعادة:

في بحثه عن السعادة، يعود أوغسطين إلى الذاكرة يستنبطها ويبحث عن محتوى الفكر المخزون في العقل الإنساني، ليتبين الكثير من الأفكار المستقرة في أعماق الذاكرة من صور الأجسام أو ماهيات الأشياء والمعارف والمعلومات والعواطف والانفعالات.ومن مجمل هذه الأفكار يعثر على فكرة السعادة، ويتأكد له من خلال تحليل مخزون الذاكرة، أن هذه الفكرة تعيش في ضميره كما تعيش في ضمير البشر جميعا وأننا ساعون للبحث عنها تواقون للحصول عليها.

ويرى أن من أدلة وجود السعادة، سعي البشرية المتواصل والدءوب لنيلها والظفر بها بعد أن وجدوها فكرة حية تملأ عليهم حياتهم، وتأخذ بمجامع قلوبهم وتسيطر على عقولهم.

يقول: «إنه لشيء يعرفه الجميع ولو قدر لنا أن نسألهم سؤالا واحدا؛أيرغبون في السعادة؟ لأجابوا بالإجماع ودون تردد نعم.فلو لم تكن ذاكرتهم محتفظة ببعض الشيء من هذه الحقيقة التي يصبون إليها لكان إجماعهم مدعاة للشك..أجل كلنا نريد أن نكون سعداء» (١)

ويربط أوغسطين بين السعادة والمعرفة الإلهية، فالبحث عن الله - الموجود الكامل الخير - والوصول إليه ثم تلقي الفيض منه؛هو السعادة بعينها التي لا يضارعها سعادة.فكما أن الجسد المادي يستمد وجوده من النفس كذلك النفس البشرية تستمد وجودها وحياتها ونورها وفيضها من الله «يا ليتني أبحث عنك لكي تحيا نفسي لأن الجسد يحيا بنفسي ونفسي بك» (٢)

---

(١) الاعترافات ص ٢١٤

(٢) الاعترافات ص ٢١٢

فالسعادة الحقة هي الاستمتاع بالحقيقة المطلقة التي هي الله.

السعادة بالله هي غبطة حقيقية وفرح عام، هي السرور الكامل، هي أن يفرح الإنسان بالمعاني الروحية، وكل ماعدا ذلك فهو وهم، فكل توجه ينحرف عن هذا الطريق هو سراب، وكل من يتصور سعادة سواها يسعى في إثر فرح زائل مخالف للحقيقة.

يقول أوغسطين: «حاشا لقلبي، حاشا لقلب عبدك الذي يعترف لك أيها الرب أن يفكر بأن كل سرور يصيره سعيدا، هناك غبطة لا توهب للأشرار، بل للذين يخدمونك حيا بك وأنت هو تلك الغبطة، والسعادة هي أن يفرح الإنسان بك ولأجلك وبسببك، أجل تلك هي السعادة ولا سعادة سواها» (١)

إن السعادة التي ينشدها أوغسطين هي سعادة نظرية تأملية ذوقية قلبية!والوصول إليها يتلخص في طريقين:

الأول: نظري تأملي عن طريق التفكر في المخلوقات حتى يصل الإنسان إلى معرفة الله.

الثاني: عملي؛إذ يتمرد الإنسان على أغلال الجسد التي تشده إلى الأرض ويتحرر من جميع قيوده ومن طغيان الشهوات، لكي يحلق معه في آفاق العالم العلوي ويطوف بملكوت السموات.فالسعادة بعد النظر والتأمل والتفكر، طريقها الخلاص البدني لكي تصل إلى عالم النور.

من خلال هذه المعرفة الإشراقية تتجلى الأنوار الإلهية في النفس البشرية ويعمها الفيض الإلهي.

فالسعادة هي فرحة بالله، وهي قمة السعادات، والسبيل إليها يتأتى من خلال البحث عنه ثم الوصول إليه ومعرفته وحبه، وهي فرحة من أجل الله وبسببه، أي أن الوسيلة هي التوجه الديني والتمسك بمبادئ المسيح والهجرة إلى عالمه السماوي، وكذلك عن طريق تطبيق التعاليم الدينية والتمسك بالفضائل والمثل العليا والعبادة المتواصلة

(١) الاعترافات ص٢١٥

والذكر الدائم، والتوجه إليه بالفكر المستمر وربط القلب به، ومن ثم تشرق الأنوار الإلهية.

هذه السعادة النظرية سوف نجد لها نظيرا فيما بعد عند صوفية الإسلام.

إذ سلكوا الطريق ذاته، فتقللوا من ماديات الحياة وتحرروا من قيود الأرض ومن رغبات الجسد وشهواته؛من مأكل وملبس وغيرها، وعكفوا على العبادة وزهدوا في طيبات الحياة وتجافوا عن دار الغرور وأنابوا إلى دار الخلود،

وتوجهوا بكليتهم؛حواسهم ومشاعرهم وعقولهم وقلوبهم، وبالجملة بكل ذواتهم إلى الله.

وعند هذه اللحظة الفائقة المتفردة، يغمرهم الفيض الإلهي وتشرق الأنوار على نفوسهم، ويتذوقوا طعم القرب من الإشراقات الإلهية.

لاشك أن الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) بسيرته العطرة وحسه الديني وجهاده في سبيل الدفاع عن الإسلام، ومنهجه المشهور يمثل أعظم تمثيل صورة الصوفي المسلم.[(١)]

وهو يناظر القديس أوغسطين، وهما يتشابهان في أن كل منهما قد وهب حياته في الدفاع عن دينه وبسط عقائده وشرح مفاهيمه والإعلاء من شأنه.وكلاهما يسير على درب المعرفة الذوقية، والنور الباطني الذي ينبعث من الأعماق بسبب الحب الإلهي الذي يغمر الصوفي ويحوله إلى خيال يقف في محراب الله.

رابعا : خاتمة

وفي الخاتمة نستطيع أن نرصد مجموعة من النتائج:

١- إن مراحل حياة القديس أوغسطين كانت تجسيدا حيا لمبادئه وانعكاسا حقيقيا للفلسفة التي اعتنقها، ومرآة صادقة للعقائد التي آمن بها بعد أن دخل حياة المسيحية واعتقد اعتقادا كاملا بصدق المسيحية والكنيسة: «إن المنحي الفلسفي والزخم الروحي اللذين نفخ بهما في الفكر المسيحي هما بدون شك أكثر أهمية

(١) نيكلسون:في التصوف الإسلامي ص ٨٤، التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ٢١٩

أيضا، إذ إن الأمر يتعلق هنا بوثبة سوف تدعم بقوتها إلى حد كبير، الفكر الوسيطي بأجمعه» .[١]

٢- اتسمت آرائه بالاعتدال والتوسط، والبعد عن التطرف أو الغلو في الآراء والإعلاء من قيمة المعرفة الباطنية والنور القلبي مع عدم الإجحاف بدور العقل في ديننا ودنيانا، أي أنه آمن بصدق النور القلبي والنور العقلي.

٣- تعد فلسفته فلسفة إيجابية من نواحي عدة:

أ - فهو يؤمن إيمانا فطريا قلبيا ثم عقليا بوجود قوة جبارة تقف وراء هذا الكون، هي التي خلقته وأوجدته من العدم وبثت فيه النظام، وأبدعت صورته ونسقته على أفضل نحو. ثم يأخذ بأيدي الحيارى والمتشككين، لكي يدلهم على الطريق السوي ويرشدهم إلى معالمه ويفتح أعينهم نور الرب، ويهدي قلوبهم إلى الإيمان الحقيقي.

ب - ولأنها تُحمل الإنسان - ككائن حي عاقل مفكر -مسؤولية عملة بلا تهاون معه فهو رب أفعاله ومسؤول عن اختياره، فكل فعل صادر عنه، وكل حركة تبدر منه وكل قول يتلفظه مسؤول عنه فهو مقرر مصيره ومسؤول أمام الله الديان مسؤولية كاملة غير منقوصة، فهو الذي سيحاسبه إن خيرا فخير وإن شرا فشر. ومن ثم فهذه الفلسفة تدفع الناس إلى الجد والعمل وعدم التهاون في شؤون الحياة وتحثهم دوما على الأخذ بالأسباب، والإيمان بالسنن الكونية والعمل على الارتقاء بالحياة والوصول بها إلى مراقي الكمال.

ج - وكذلك هي فلسفة إيجابية؛إذ تنفي نسبة الشر إلى الله، وتقرر أن الشرور عارضة في حياتنا، فالخير هو الجوهر والثابت والباقي، والشر أمر عارض نسبي يظهر ثم يختفي مثل بخار الصباح.

ثم يؤكد على أن الأعمال البشرية هي التي تأتي بالشر إلى الوجود ورغبات الإنسان وطموحه، ودوافعه المتباينة هي التي تجعله يتنكب الطريق، فيورد نفسه موارد التهلكة،

---

(١) جونو: الفلسفة الوسيطية ص ١٤

فيكسب العالم ويخسر نفسه التي بين جنبيه، فهو فاعل للخير وللشر معا.

د - هي فلسفة دينية إيمانية، لأنها تعتمد في الأساس على مبادئ المسيحية وعلى عقائدها المقررة، كما وردت في الأناجيل فهو متمسك بالنصوص المقدسة، مع إعمال فيها كي يستخلص منها الغايات المرجوة والأهداف النبيلة والمقاصد الحسنة.

هـ - وهي فلسفة تفاؤلية، لأنها باحثة عن مطالب الإنسان وتوجهاته وتعمل على تحرره من الألم والشقاء، وتمنيه بالمستقبل المشرق، ونسيان الماضي المؤلم، وأن يعيش حاضر الحاضر الذي يملكه، إذ لا يملك إلا هو، ويحقق فيه ذاته ويسعى إلى نشدان السعادة التي هي أمل الناس جميعا.

٤- ومن هذا كله يأخذ أوغسطين بيد الإنسان المعذب في هذه الحياة، والذي يقاسي من ويلاتها لكي يرشده إلى السعادة الحقيقية، والغبطة الأبدية فيحدد معالم الطريق، ويطلب منه أن يسيطر على شهواته العارمة، ويجاهد مجاهدة الأتقياء ويصبر صبر الفقراء ويتحلى بحكمة الحكماء ويبصر بنور الصوفية الأتقياء، حتى تستطيع روحه أن ترقى إلى عالم النور، وهناك سوف تنكشف أمامه الحقائق الربانية الأزلية ويسعد بالتجليات الإلهية والفيوضات النورانية.

الخلاصة: أن فلسفة القديس أوغسطين من الفلسفات الحية «الديناميكية» التي مازالت تؤثر في نفوس جماهير المؤمنين بالمسيحية، وتحركها في اتجاه الإيمان بالله والتقرب إليه وهي دعوة إلى الحرية، وتحمل المسؤولية، ومشاركة الآخرين والتعاطف معهم بالحب والأمل والرجاء.

إنها فلسفة إيجابية تنويرية تفاؤلية دينية، وليست فلسفة سلبية تشاؤمية عدمية تاريخية، بل مازالت تنبض بالحياة لما لمبادئها من فاعلية وقوة محركة، وطاقة كامنة تحرك الأفراد والمجتمعات والتاريخ، تجاه السعادة والحب والتقدم والحرية والسلام.

تحريرا في ١٥/ مارس /١٩٨٧.

خامسا :أهم المراجع:

١- أوغسطين)٤٣٠ م)الاعترافات، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٢.

٢- بدوي (د.عبد الرحمن) الزمان الوجودي، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥.

٣- التفتازاني (د.أبو الوفا) مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٤.

٤- جونو:ادوار):الفلسفة الوسيطية، ترجمة د.علي زيور، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٢.

٥- جيلسون (اتين):روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، عرض وتعليق، د.إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٤.

٦- حنفي (د.حسن)نماذج من الفلسفة المسيحية، دار الكتب الجامعية، القاهرة، ١٩٦٩.

٧- الزيني (د محمد):ابن القيم وآراؤه الكلامية، دار القطب، الجزائر، ١٩٩٣.

- مشكلة الفيض عند فلسفة الإسلام، ديون المطبوعات، الجزائر، ١٩٩٣.

- أبو الهذيل العلاف وآراؤه الكلامية والفلسفية، دار المنار، صنعاء، ١٩٩٥.

- شهداء الفكر في الإسلام، دار الهدي، الجزائر، ١٩٩٤.

٨ - الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨هـ) الملل والنحل، ت.فتح الله بدران، الأنجلو المصرية ،القاهرة، ١٩٥٦.

٩- عبد الجبار (القاضي المعتزلي ت٤١٥هـ) المغني في أبواب التوحيد والعدل ج١٣(اللطف)ت، أبو العلا عفيفي، ط، المصرية للتأليف.

١٠- قسوم (د.عبد الرزاق)الزمان في فلسفة ابن رشد، المؤسسة الوطنية، الجزائر، ١٩٩٠.

١١- القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن ت ٤٦٥هـ)الرسالة القشيرية،

ت، عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

١٢- قنواتي (د.جورج قنواتي) المسيحية في الحضارة العربية، المؤسسة العربية، بغداد، ١٩٨٤.

١٣- كرم (يوسف -١٩٥٨) تاريخ الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، دار المعارف، القاهرة.

١٤- مدكور (د.ابراهيم بيومي)في الفلسفة الإسلامية ج١، ج٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦.

١٥- نيكلسون (رينولد) في التصوف الإسلامي وتاريخه، ت، أبو العلا عفيفي، ط، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

***

obeikandl.com